حرف الألف

الغزالة المذعورة

قال عنترة في صباه يصف ابنة عمه عبلة بنت مالك بن قراد العبسي، وكان مغرماً بها:

[الكامل]

رَمَتِ الفُؤادَ مَليحَةٌ، عَذْرَاءُ،
بِسِهَامِ لَحْظٍ، مَا لَهُنّ دَوَاءُ[١]
مَرّتْ، أوَانَ العِيدِ، بَينَ نَوَاهِدٍ
مِثْلِ الشُّمُوسِ، لِحاظُهنّ ظُبَاءُ[٢]
فَاغْتَالَنِي سَقَمِي الذي في بَاطِنِي،
أخْفَيْتُهُ، فَأذاعَهُ الإخْفَاءُ[٣]

(١) يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني غزلي، فقد أصابت قلبه سهام عينين جميلتين لعذراء بكر أوقعته طريح الهوى، وليس لمن أحبّ دواء.

(٢)، (٣) نواهد، واحدهن ناهد: من نهد ثديها وتكعّب. الظُّبَاء، واحدها ظُبية؛ حد السيف. إنه العيد، يوم الفرح، والكلّ يفرح ويلهو، فجأة تطلع الحبيبة كشمس مشرقة بين أتراب لها ناهدات فرحات بإطلالة العمر والشباب، لحاظهن سيوف قاطعة مهلكة لا يقوى على مقاومتها أحد، فكيف بالمحبّ؟ والشاعر مريض ولا شِفاء له إلّا برضى المحبوب، وهو =

خَطرَتْ. فقلتُ: قضيبُ بانٍ حَرّكتْ
أعطافَهُ، بعدَ الجَنوبِ، صَباءُ[١]
وَرَنَتْ، فقُلتُ: غَزَالَةٌ مذعورَةٌ،
قد رَاعَها، وَسْطَ الفلاةِ، بلاءُ[٢]
وَبَدَتْ، فقلتُ: البَدرُ ليلةَ تِمِّهِ،
قَدْ قَلّدَتْهُ نجُومَها الجَوْزَاءُ[٣]
بَسَمَتْ، فلاحَ ضِياءُ لؤلؤ ثغرِها،
فيهِ لِداءِ العاشِقينَ شِفَاءُ[٤]

= الدواء الشافي، وقد أهلكه مرضه، ولقد حاول إخفاء مشاعره ولكن محاولاته عادت بالفشل، فإذا بالعيون تكشف ما في القلوب.

(١) خطرت: مرّت تميس بمشيتها. البان: ضرب من الشجر تمتدّ أغصانه مستوية. أعطاف، واحدها عطف: الجوانب. الجنوب: ريح حارّة تقابل ريح الشمال. الصبا: هواء ناعم يُحيي الروح. يصف الشاعر مشية حبيبته، فهي قضيب رقيق ممتدّ ناعم مستقيم يتمايل مع النسيم فتلتقي رقته برقة الصبا؛ فتميل القلوب حيث تميل.

(٢) رنت: نظرت بطرْف ساكن. نظراتها يلتمع فيها حياء هادئ لطيف كأنها غزالة تحذر صياداً تطلّعها يمتزج بشيء من الخوف، وسْط قفر، لا ملجأ فيه ولا مانع من نزول البلاء في ساحته.

(٣) الجوزاء: أحد البروج الكثيرة النجوم. فجأة وبلا سابق إنذار ظهرت؛ إنها كالبدر الساطع ليلة تمامه، وقد تلألأت نجوم تحيط به وسط كوكبة برج الجوزاء؛ فهي وسْط رفقة بدَوْن نجوم الحياة لمن عشقهنّ.

(٤) للبسمة ألف لغة ولغة، ولكنها في نظر العاشق إشراق الأمل، وما يجعلها جميلة أن لؤلؤاً ينمّ عن ثغر رسمته يد القدرة بالسحر، فإذا به يستحيل شفاءً لمن هوَى.

سَجَدَتْ تُعَظِّمُ رَبَّها، فَتمايَلتْ،
لجلالها، أرْبابُنا العُظَماءُ[١]
يا عَبْلَ! مثلُ هَوَاكِ أوْ أضْعافُهُ
عندي، إذا وَقَعَ الإياسُ، رَجاءُ[٢]
إنْ كانَ يُسْعِدُني الزّمانُ، فإنّني
في هِمّتي، بصُرُوفِهِ، إزْرَاءُ[٣]

فلئت بقيت

قال في صباه:

[الكامل]

ما زِلْتُ مُرْتَقِياً إلى العَلْيَاءِ،
حتى بَلَغْتُ إلى ذُرَى الجَوْزَاءِ[٤]
فَهُناكَ، لا ألوي عَلى مَنْ لامني،
خَوْفَ المَمَاتِ وَفُرْقَةِ الأحْياءِ[٥]

(١) في هذا البيت روح إسلاميّة ممّا يُوحي بأنه منحول. إنها مؤمنة بإلٰه، لذا سجدت شكراً لخالقها، فإذا بالمخلوقين رغم عظمتهم يتمايلون إجلالاً لها وتعظيماً.

(٢) الإياس: فقد الأمل. يُطلّ في هذا البيت اسم المحبوبة، ويُخاطبها على أنها أمله في هذه الحياة ولن يتسرّب اليأس إلى قلبه رغم الموانع والمعضلات التي تحول دون رضاها عنه.

(٣) صروف الزمان: مصائبه، مفردها صرْف. الإزراء: الاحتقار. فكرة نضال الشاعر وقدرته على تخطّي الصعاب، أنه قادر بهمته وتصميمه على امتصاص صدمات الأزمات، لذا فإنه ينتظر أن يتبسم له الزمان ويحقّق له سعادته بقرب من يهوى.

(٤)، (٥) من طبيعة الشاعر الفخر بنفسه، وبما حقّقه في مجتمع لا يقدّر إلّا =